مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد: 28 عدد: (رت 75) السنة: 2024

جدليّة العلاقة بين المناهج النّقديّة الحديثة والمعاصرة والنصوص التّراثيّة

The Dialectic of the Relationship between Modern and Contemporary Critical Approaches and Heritage Texts

د.غنية جدع[1]
جامعة الشّهيد الشيخ العربي التبسي
ghania.djeda@univ-tebessa.dz

تاريخ الوصول 2023/04/18القبول2024/01/06النشر على الخط 2024/01/15
Received 18/04/2023 Accepted 06/01/2024 Published online 15/01/2024

ملخص:

يعتبرُ التّراثُ قضيّةً بالغة الأهميّة في الفكر الحديث والمعاصر، وانشغالا ساير الوعي النّقدي بمنجزات الحداثة وأدرك الإشكاليّات الّتي قد تُؤثّر سلبًا على خُصوصيّة النّصوص التّراثيّة العربيّة، الّتي تشكّل مفهوما ثابتا يرفض التيّار المتشبّث بالماضي العربي تفكيكه، بينَما تَلقَّى تيّار آخر مناهجَ الغرب بصدر رحب وراح يُسائِل المتون التّراثيّة العربيّة بها فبين هذا وذاك يتأرجح النصّ التّراثي، وتتباين القراءات النّقديّة بتباين المواقف من النّص التّراثي ومن المنهج الحداثي، وهو ما يولّد جدليّة الاتّصال والانفصال بينهما، ويدعو للبحث في خلفيات المناهج وغايات القراءات النّقديّة، أهو النصّ القديم أم كسب شرعيّة المنهج الجديد؟ وقد تمّ التوصّل إلى نتائج عديدة من بينها أنّ قراءات بعض النقّاد المعاصرين للتّراث هي سعي لكسب شرعيّة المنهج وانتصار له على حساب النّص، وهو ما يندرج ضمن جدليّة الاتّصال والانفصال بين: النص، القارئ، والمنهج، ولتجاوز هذه الإشكاليّة وغيرها لابدّ من بحث سُبل التّكامُل بين المعارف والعلوم والمناهج و تحديد العلاقة بين القارئ والنّص، ومعرفة خصوصيّة النّص والمنهج.

الكلمات المفتاحية: النّص- التُّراث- القراءة-المنهج-إشكاليّات.

Abstract:

Heritage is a very important issue in modern and contemporary thought, and a preoccupation with the critical awareness of the achievements of modernity and realized the problems that may negatively affect the specificity of Arab heritage texts, which constitute a fixed concept that the current clinging to the Arab past refuses to dismantle, while another current received the methods of the West with a wide chest and began to ask the Arab heritage materials about it, between this and that the heritage text oscillates, and the critical readings vary with the different positions from the heritage text and the modernist method, which generates the dialectic of connection and separation between them, and calls for research into the backgrounds of the curricula and the ends of critical readings, is it the old text or the gain of legitimacy for the new method? many results have been reached, including that the readings of some contemporary critics of the heritage are an effort to gain the legitimacy of the method and its victory at upon of the text, which falls within the dialectic of communication and separation between: the text, the reader, and the method. In order to overcome this problem and others, ways of integration must be explored between Knowledge, sciences, and methods, identifying the relationship between the reader and the text, and knowing the privacy of the text and the method

Keywords: *Text- Heritage- Reading- Method- Problems.*

[1]- المؤلّف المرسل: د.غنية جدع البريد الإلكتروني: **ghania-djedaa@univ-eloued.dz**

1. مقدمة:

حَظِيَ التّراثُ العربي بمختلف أنواعِه بعِنَايَة القُرَّاء واهتمام النقّاد، حيث اشتغلَ الكثيرُ من المفكّرين والباحثين المعاصرين العرب في المشرق والمغرب على البحث فيه وصبر أغواره، فكان له صدى في الدّراسات والفكر العربي المعاصر، فبالرّغم من مرور قرون وسنوات على النّصوص والأفكار الماضيّة إلّا أنّ هناك من رأى في استحضارها ضرورة؛ لخدمة الفكر المعاصر أو حتّى إقامة حوار بين الحاضر والماضي من خلال تتبّع مفاهيم حداثيّة غربيّة في التّراث العربي؛ لبعثه وكشف قُدرات السّابقين من الفلاسفة والنحّاة وعلماء البلاغة والنّقد وتبيين سابقيّتهم في إيجاد مفاهيم تلتقي ومنجزات النظريّة الغربيّة المعاصرة.

من هنا حاول النقّادُ المعاصرون وَصْلَ حلقات الماضي بالحاضر عبر التّأصيل لأحدث المصطلحات والمفاهيم والنّظريّات الحديثة والمعاصرة في التّراث العربي، وراحوا يسائلون المتون التّراثيّة العربيّة بها، فبين هذا وذاك يتأرجح النصّ التّراثي وتتباين القراءات النّقديّة بتباين المواقف من النّص ومن المنهج الحداثي، وهو ما يولّد جدليّة الاتّصال والانفصال بينهما ويدعو للبحث في خلفيات المناهج وغايات القراءات النّقديّة، وهو ما كان سببا في ميلاد إشكاليّات تُواجه قارئ النّص التّراثي، منها ما يتعلّق بالمنهج الّذي اعتمده الباحث في التّراث وبالضّبط الخلفيّات الحقيقيّة للمناهج وما تكتنزه من مرجعيّات تُشكّل خطرا على خصوصيّة المقروء التّراثي وإشكاليّات تتعلّق بالمقروء نفسه؛ أي بالنّص وأخرى بغايات القارئ.

حيثُ ينطلق هذا المقال من إشكاليّة مفادها:

– فيم تتمثلُ إشكاليّات القراءة المعاصرة للتّراث؟ وما هي خلفيات المناهج وغايات القراءات النّقديّة، هل هو النصّ القديم أم كسب شرعيّة المنهج الجديد؟

وللإجابة عن هذه الإشكاليّة والتّساؤلات المتفرّعة عنها، تمّ تقسيم هذه الدّراسة إلى ثلاثة محاور، هي:

أوّلا– مفهوم التّراث بين الأنا والآخر.

ثانيا– تعريف التّراث النّقدي والقراءة.

ثالثا– جدليّة العلاقة بين المنهج والنّص التّراثي والقارئ والوسط: واقع وإشكاليات.

2. مفهوم التّراث بين الأنا والآخر:

يُشكّلُ التّراثُ بمختلف مجالاته ميدانا معرفيّا يشتغل عليه العديد من النّقاد والدّارسين، بطرحهم الكثير من القضايا والتّساؤلات، حيث دأب هؤلاء للعودة للماضي النّقدي العربي لتحقيق غايات عديدة من بينها إعادة بعث التّراث من جديد، كقراءة 'حسين المرصفي' للتّراث العربي في 'الوسيلة الأدبيّة إلى العلوم العربيّة'، ولعلّ هناك الكثير من الدّراسات التي وَلَّدت إشكاليات في تعاملها مع النّص التّراثي، كتلك التي تقدّس المنهج على حساب النّص وتفرضه فرضا عليه دونما مراعاة لخصوصيّاته، أو القراءات الإسقاطيّة التي حدّدت أهدافها من العودة للتّراث قبل أن تصل إليها كنتائج، أو القراءات الّتي تسعى إلى إثبات مشروعيّة المناهج النّقديّة الحداثيّة التي هي منجزات الغرب وذلك من خلال التّأصيل لها في الماضي العربي، وهو موجود في القراءات الاستشراقيّة التي بحث بعضها أو أغلبها في التّراث العربي بغَرض ربطه بالتّراث اليوناني باسم الإنسانيّة، وتلك الدّراسات التّحديثيّة التي تُنطق التُّراث بما ليس فيه.

كما أنّ الإشكال تفاقم أكثر بميلاد الفكر الإقصائي بين مختلف القراءات فصار المتلقّي العربي أمام صراع براديغمي لامتلاك حقيقة النّص فهل أنّ هذه القراءات المتعدّدة التّأصيليّة أو الحداثيّة، أو التّحديثيّة أو الإيديولوجيّة الفكرانيّة أو الإسقاطيّة هي من تملك الحقيقة؟

ولعلَّ أبرز هذه الإشكاليات وُلدت من النّظرة إلى التّراث، فهناك من يربط التّراث العربي بالذّاتيّة والذّائقة العربيّة تحت مُسمّى تُراث الأنا، وهناك من يعتبر التّراث إنجازا إنسانيّا كونيا من هنا اعتمد على مناهج الآخر في مقاربته له ولعل 'جابر عصفور' أحد هؤلاء النقّاد، فالتّراث عنده هو "كلّ ما ورثناه تاريخيّا عن أسلافنا الّذين هم الأمّة البشريّة الّتي نحن امتداد طبيعيّ لها."[1] بينما يمتلك غيره رؤيا مخالفة لما يراه فالتّراث العربي –حسب اعتقاد البعض– غَيْرَ تُراث الآخر، إذ ينفي هؤلاء سمة الإنسانيّة والتّشاركيّة، فتراث الأنا عندهم متعلّق بخصوصيّة الفكر، الثّقافة، اللّغة وكذا الوعي ونمط التّفكير.

ويُعتبر التّراث من أهمّ المفاهيم وأكثرها تعقيدا في الفكر المعاصر، حيثُ تصادم هذا الأخير مع تعدّد الرّؤى، وتباين القراءات التي تباينت مراميها وغاياتها، وذلك راجع لخصوصيّته كنصّ وُجد في ظروف غير ظروف القارئ المعاصر وتقنياته المنهجيّة، وقد توجّه النُّقاد المغاربة والمشارقة لمشاكسة ثَبات النّص النّقدي التّراثي العربي ومحاورته من خلال مناهج معاصرة، فنجد 'جابر عصفور' يسائل الشّعريّة العربيّة ويسعى للتّأصيل لها من خلال أشهر النُقّاد العرب بين القرنين الرّابع والسّابع للهجرة ويسعى للتمرّد على التّراث العربي من خلال نظرته للتّراث كنصّ يمارس سلطته على القارئ المعاصر، كما فعل الشّيخ مع السّندباد الّذي سعى لمدّ يد العون له، فأبى النّزول من على ظهره، فتخلّص منه، وفي ذلك إشارة إلى مدى تأثير وحضور التّراث في ذاكرة ووعي القارئ العربي لذا دعا للحذر في التعامل معه بمرونة.

3. تعريف التّراث النّقدي والقراءة:

يُشكّل التُّراث النّقدي العربي جزءا من التّراث العام حسب النّاقد المصري 'جابر عصفور'–رحمه الله–، وهو تَرِكَة النُقّاد القدامى ومجهوداتهم في تقييم الأعمال الإبداعيّة خاصّة ما تعلّق منها بالشّعر، ويتمثّل في "ذلك الزّخم الفكري والمعرفي الّذي تركه المتقدّمون من نقّاد وبلاغيّين حول القضايا النّقديّة، الّتي تمثّل أهمّ المسائل الّتي عرفها النّقد والأدب العربيّين، فأُلّفت فيها كُتبٌ ومُصَنّفات سعى من خلالها النقّاد القدامى الإجابة على العديد من الأسئلة الّتي شغلت الفكر العربي القديم"[2] وهو تعريف يحيل على مدى أهميّة النّصوص التّراثيّة من جهة، ومن جهة أخرى على صعوبة الإحاطة بتلابيب قضايا التّراث، كما يشير إلى مجهودات القدامى في سبيل إيجاد إجابات طرحها الفكر العربي سابقا.

ولعلَّ الحاجة ماسة لإيجاد إجابات لتساؤلات الفكر المعاصر، الذي يقف محتارا بين ماضيه العربي الّذي لم يتمكّن من إنجاز مثله في واقعه، وحاضره الّذي لم يستطع أن يثبت فيه ذاته، فأخذ عن الآخر منجزاته ونظريّاته النّقديّة التي أُنتجت قياسا على نصوص غربيّة فما هو مصير النّص العربي التّراثي أمام مناهج معاصرة أنتجها الغرب وفق منظوره وأيديولوجيّاته الخاصّة؟

تُعدُّ القراءة عند 'فاضل' ثامر "شكلا من أشكال الأخذ والعطاء وحوارا بين القارئ والنصّ"[3] حيثُ يركّز هذا التّعريف على طرفي العمليّة الإبداعيّة: النّص والمتلقّي، ويتجاوز كاتب النصّ، بمعنى نحن في إطار مفهوم القراءة حسب تصوُّر نظريّات القراءة والتّلقي الّتي تجعل من المتلقّي عنصرا مركزيّا بتفاعله مع النّص ومنتجا للدّلالة أيضا، بمعنى الانطلاق من نص الكاتب إلى نصوص القرّاء واستمراريّة إنتاج الدّلالة عبر

[1]– جابر عصفور، هوامش على دفتر التّنوير، المركز الثّقافي العربي، الدار البيضاء–المغرب، ط1، 1994، ص22

[2]– هاجر تقية، مبروك دريدي، قراءات التّراث النّقدي العربي في ظلّ مقاربات النّقد الحواري، مجلّة إشكالات في اللّغة والأدب، المركز الجامعي تامنغست–الجزائر، العدد3، المجلد9، 2020، ص198.

[3]–فاضل ثامر، اللّغة الثّانية، المركز الثّقافي العربي، بيروت–لبنان، ط1، 1994، ص41.[3]

التّأويل، وغير بعيد عن هذا يرى 'جابر عصفور' أنّ "معنى القراءة بوجه عام لا ينفصل عن التّفسير ولا يبتعد كثيرا عن التّأويل"[1] فهي عمليّة تفسيريّة هيرمنيوطيقيّة لأداء المعنى من لدن القارئ، الذي يسعى لاكتشاف النصّ وتفسيره وتقديم قراءة جديدة له تشرحه وتوضّح غوامضه.

ويرى هذا النّاقد "أنّ قراءة التّراث النّقدي، شأنها شأن أيّ قراءة أخرى، لا يمكن أن تتقدّم إلّا إذا انقسم وعي القارئ على نفسه، في مرحلة من مراحل القراءة، وأصبح وعيا مزدوجا، ذاتا وموضوعا في آن، بحيثُ يتمكّن هذا الوعي من تأمّل نفسه، في علاقته بمعطيات التّراث المقروء وكيفيّة إدراكه لها وسيطرته عليها، ويدرك أنّ جهاز قراءته قد كشف في النصّ الّذي قرأ عن معنى ذي دلالة في السّياق التّاريخي لهذا النصّ وأفقه الزّمني الخاص، وذي دلالة موازية في السّياق التّاريخي لهذا القارئ وأفقه الزّمني الخاص في أن"[2] حيثُ يشترط 'جابر عصفور' تفاعل عناصر القراءة الثّلاثة الّتي أضاف عليها عنصرا سمّاه الأنساق المعرفيّة، فلا يلغي القارئ المعاصر المناهج والمعارف وآليات الحفر الحداثيّة الّتي يقرأ بها تراثه ولا يتجاوز مكنونات النّصّ التّراثي وحيثيّاته، إذ يحمل دلالات ومعارف وأفكار تعبّر عن عصره وعن قدرات صاحبه فتغدو قراءته متفاعلة مع ماضيه وحاضره، تحاول التّوفيق بين مقصديّة النّص التّراثي في الماضي ودلالته في عصره، بمعنى يبحث عن رؤيا عالم النصّ التّراثي في تاريخه وبين أنساقه ليوازيها مع رؤيا عالمه هو، من هنا عَدّ 'جابر عصفور' قراءة التّراث قراءة للواقع.

وينطلقُ القارئ في عمليّة التّفسير والتّأويل هذه من الأنساق السّابقة "كمحطّة أوّليّة تمهيديّة ليؤسّس عبرها قراءة جديدة، ممهّدة لأخرى في الوقت نفسه وهكذا"[3] وهنا نكون أمام التّأويل الّذي جعله 'جابر عصفور' مرادفا للقراءة ويدعو من خلال كتبه وحفرياته في التّراث النّقدي والشّعري والبلاغي لقراءة التّراث النّقدي في الإطار العام للتّراث وذلك من خلال مناهج الآخر الّتي لا سبيل لتجاوزها، فهي تشكّل أنساقا معرفيّة في زمن القارئ المعاصر، وقد انطلق من قراءات ومجهودات النقّاد في التّراث فوجد أنّ منهم من اختار القراءة الوصفيّة للنصّ التّراثي بتقفّي سبل الموضوعيّة وتجاوز نظرة تقديس التّراث، ومن درسه دراسة تثاقفيّة إيديولوجيّة مركزت القارئ على حساب النصّ.

لكن ما لا يجب تجاهُله أنّ مناهج اليوم هي صورة لفكر، ثقافة، ديانة الآخر الغربي، وهي وإن كانت من أحدث ما توصّل له التّفكير الإنساني الغربي بفعل النّهضة والعولمة تبقى فرضا لمفهوم المركزيّة الغربيّة وخلقا لثنائيّة المركز والهامش المنتج والمقلّد، الحداثة والتّراث الّذي له خلفيّاته الدّينيّة خاصّة، فحتّى سعْيَ الحداثة التمرّد على الماضي فله أسبابه عند الآخر الّذي عانى ويلات الكنيسة التي كانت تُشكّل مركزا بالنّسبة له، وهي من كانت تضع المعرفة وتصنع الخطاب، فالغربي وإن خلخل هذه الخلفيّات وأقرّ بذلك في نصوصه ومناهجه ونظريّاته فله خلفيّاته الخاصّة، والّتي قد لا يصلح أغلبها ليُقلَّد في بيئة عربيّة لها خصوصيّاتها ومقدّساتها وثوابتها.

ولعلّ التّعامل مع النّصوص التّراثيّة من لَدُنِ النُقّاد الحداثيّين والمعاصرين لا يكون إلّا بمناهج اليوم، انطلاقا من حق القارئ المعاصر في فهم ماضي أمّته بواسطة معطيات حاضره، لكنّ ذلك لا يمنع من إمكانيّة التّفكير في قراءة النُّصوص التّراثيّة بالآليّات النّقديّة الّتي كانت مرافقة لتلك النّصوص، حتّى لا نبخس النصّ مكانته في عصره، ولا نبخس جهود النّقاد وما توصّلوا إليه في الماضي، وهنا نكون قد تجاوزنا إشكاليّة فرض المنهج الجديد على النصّ القديم، بالإضافة إلى تجاوز إشكاليّة تبعيّة النّقد العربي الحديث والمعاصر للغرب، فيقرأ ماضيه بما توصّل إليه القدامى، ويقرأ حاضره الّذي تأثّر فيه بالآخر بمناهجه، نظريّاته، ومصطلحاته في ظلّ عجزه عن تقديم البديل، ولا يمكن للعربي أن يتجاهل حقيقة هذا الوضع والشّعور بدونيّة الذّات العربيّة الّتي فرضها نظام العولمة.

---

[1]- جابر عصفور، قراءة التّراث النّقدي، مؤسّسة عيبال للدّراسات والنّشر،ط1،1991، ص12.

[2]- المصدر نفسه، ص16.

[3]- وليد عثماني، استحضار التّراث في المدوّنة النّقديّة العربيّة المعاصرة جابر عصفور نحو قراءة جديدة، مجلّة مقاليد، ديسمبر2018، العدد15، ص144.

فالعولمة كما يرى 'عبد الله إبراهيم' غايتها ليس فقط "تعميم النّموذج الغربي على مستوى العالم، واستبعادها التّشكيلات الثّقافيّة الأصليّة، إنّما توقد شرارة التفرّد الأعمى، ذلك أنّ بسط نموذج ثقافي بالقوّة لا يؤدّي إلى حلّ المشكلات الخاصّة بالهويّة والانتماء، إنّما يتسبب بظهور أيديولوجيات متطرّفة"[1] وتحدَّث عن التّقليد الأعمى للغرب الّذي يرمي لصناعة مفاهيم عالميّة، هو ينتجها ويفرضها على الجميع، وهو ما يولد أزمة النّظرة الدّونيّة التّهميشيّة للذّات وعجزها عن المنافسة وصناعة الجديد، لذلك يدعو لنقد ثقافة التّقليد وهذه "المطابقة"؛ ليظهر العربي ثقافته المختلفة عن الآخر.

4.جدليّة العلاقة بين المنهج والنّص التّراثي والقارئ والوسط: واقع وإشكاليات:

عندما يسعى القارئ أو النّاقد لمقاربة النّص الأدبي فهو موضوع ضمن دائرة من المفاهيم يُفترضُ أن يخلق علاقة متوازنة، مرنة، ومنسجمة مع كلّ عنصر من عناصرها، ألا وهي: النّص–المنهج، الذّات القارئة، والوسط، حيثُ يشكّل النص المتنَ المدروس والمادّة التي يبحث في ثناياها القارئ، ويسعى لكشف مكنوناتها الفكريّة دون أن يغفل عن جماليّاتها الأسلوبيّة، وهو يُقارب هذا المتن يحتاج للمنهج النّقدي الّذي يُمثّل آليّة لاستكشاف وتقييم النّص، وهو مُحمّلٌ بأبعادٍ ومرجعيّاتٍ إيديولوجيّة وتاريخيّة وسياسيّة واجتماعيّة وكذا دِينيَّةٍ، من هُنا يتوجَّب على القارئ أن يكونَ واعِيًا بهذه الخلفيّات، دُونَ أن يَغفل عن خُصوصيَّةِ النَّصِ المقروء، وهُنا نستحضِر ذلك الصِّراع القائِمِ بين المناهج النَّقديّة الحداثيّة وما بعد حداثيّة والنُّصوص التُّراثيّة، أو قُل علاقة التّراث بالحداثة والمعاصرة، وبالنّاقد نفسه، وهو ما يفرض تذكُّر المواقف المختلفة من النّص التُّراثي والمنهج الغربي.

حيثُ تَمايزت المواقف النّقديّة بتمايُز المواقف الإيديولوجيّة من النّص والمنهج، من التُّراث والحداثة، فاختارَ التيّارُ المحافظ الماضي العربي واتّصلَ به واقتنع بمنجزاته ورفض نظريّات الغرب، بَيْدَ أنَّ الفريق الثَّاني انتصر لمقولات الحداثة والتّمرُّد على الماضي، وحاول فريقٌ ثالثٌ أن يقف موقِف الحِياد بين الفريقين ليُقيم حوارا بين التُّراث والحداثة، وهو ما يعتبره بعض النُّقّاد تلفيقا وجمعا بين المتناقضات.

وفي خِضم هذه الرُّؤى والخُصوصيات المتعلّقة بالنّص والمنهج، تحضُر شخصيّةُ النَّاقد أيضا، الّذي يَجدُر به أن يَنطلق من مجموعة من الأسئلة وهو يمارس فعل النّقد، من مثل:

–مَن أنَا؟

–ما الخلفيّات الّتي أَنطلِقُ منها لأقرأَ نصًّا؟

–ما المنهج المناسب؟

وقبل أن يُحدّد المنهجَ المناسب يتوجَّبُ عليه، طَرحَ أسئلة تتعلّق بالنّص المقروء، من قبيل:

ما طبيعة هذا النصّ؟

–ما هي خصائصه؟ وما غاياته؟ وما حقيقته؟ وفيم تتمثّل خصوصيّاته؟

–أي منهج يصلح لمقاربته؟

كما يتعيّنُ على النّاقد–كما أشرنا سابقا– أن يُقيم علاقة مَرنةً مع المقرُوء ذاته، ومع منهج الدِّراسة المتبّع، حيثُ لا يبقى حبيسَ منهجٍ واحد يُقصي غيرَه، وإنّما يُحاول البحث في المناهج الأخرى، وفي العلوم الأخرى– لما لا– حتّى يجد الإجابات المقنعة عن جميع التّساؤلات الّتي طرحها، انطلاقا من فكرة التّكامُل المعرفي بين العلوم، فمثلما انتقل المنهج من العلوم الطّبيعيّة إلى العلوم الإنسانيّة، يمكن للمعارف أن تنتقل

[1]– عبد الله إبراهيم، الثّقافة العربيّة والمرجعيّات المستعارة، تداخل الأنساق والمفاهيم ورهانات العولمة، الدّار العربيّة للعلوم، بيروت ناشرون، ط1، ص10.

أيضا فتستفيد العلوم من بعضها البعض، وكما استفاد الأدب والنّقد بالتّحديد من علم النّفس والاجتماع والفلسفة والتّاريخ وغيرها من العلوم الأخرى، فقد استفادت هي أيضا منه فلا أحدَ يُنكِرُ فضل الأعمال الإبداعيّة الأدبيّة ودورها في كشف مكبُوتات النّفس البشريّة في علم النّفس.

فالتّكامُل بين المعارف والعلوم والمناهج و تحديد العلاقة بين القارئ والنّص، ومعرفة خصوصيّة النّص والمنهج هي وسائل القراءة النقديّة الموضوعيّة النّاجحة.

كما لا يمكن للنّاقد أو الباحث تجاهُل الوسط الّذي أُنتج فيه النص، والّذي لا ينطلق من فراغ ويرتبط بخلفيّات اجتماعيّة، تاريخيّة، ثقافيّة، فكريّة وغيرها، لا مَناصَ للمبدع من التنصُّلِ منها فهي جزء منه وهو جزء منها، وهذا لا يعني إغفال الجانب اللّغوي؛ أي النصّ في ذاته في علاقته بنفسه، وأيضا في علاقته بغيره من النّصوص سواء تعلّق الأمر بالتّناص أو الحوار الفكري مع مختلف النّصوص مهما كانت صبغتها أدبيّة، فلسفيّة، اجتماعيّة.

نستحضرُ في هذا المقام الرّؤية النّقديّة 'لجابر عصفور' وهو يمارس مشروعه الحفري في التّراث النّقدي في كتاب "قراءة التّراث النّقدي" وهي رؤية قريبة إلى حدّ بعيد ممّا سبق ذكره، وبالتّحديد في علاقة النصّ التّراثي بالقارئ المعاصر، حيثُ يرى أنّ "للنصّ التّراثي حضورين، حضور (هناك) في تاريخه الخاص[...] وحضور (هنا) في تاريخنا الخاص[...] حين نقرأ هذا النّص التّراث في ظلّ علاقات محدّدة لإنتاج المعرفة، وشروط متعيّنة تحدّد طبيعة حياتنا وتوجّهاتها، وصراعاتنا وعلاقتنا بما ندرك أو نقرأ"[1] وهي مشكلة تُواجه قارئ التّراث، حيث أنّ حضوره الحقيقي في تاريخه وبين أنساقه المعرفيّة الّتي أنتجته مختلف عن حضوره لدى القارئ المعاصر الّذي يحاول البحث فيه انطلاقا من حاضره هو، ويضرب مثالا لذلك بقراءة 'طه حسين' و'مندور' لنصوص التّراث وتركيزهم على الذّوق الفردي الموازي للنّفور اللّبرالي من النّسق المغلق وهو ما يصوّر رؤيتهم لا رؤيا النصّ التّراثي.

وغير بعيد عمَّا ذهب إليه 'جابر عصفور' يرى 'محمّد عابد الجابري' في كتابه 'نحن والتّراث' أنّ القراءة النّقديّة للنّصوص التّراثيّة إنّما تهدف لجعل "المقروء معاصرا لنفسه على صعيد الإشكاليّة والمحتوى المعرفي والمضمون الأيديولوجي ومن هنا معناه بالنّسبة لمحيطه الخاص- ومن جهة أخرى تحاول هذه القراءة أن تجعل المقروء معاصرا لنا على صعيد الفهم والمعقوليّة، ومن هنا معناه بالنّسبة لنا نحن"[2] وهنا نستحضر جدليّةَ الاتّصال والانفصال مع المقروء، علاقة القارئ المعاصر بالنّص التّراثي، وهي نتيجة طبيعيّة إذا ما ركّزنا على وُجود النّص هناك وهُنا، ووجود القارئ في زمنه وبين نظريّات ومناهج الآخر، ووُجود التُّراث وتجذّره في وعيه، ولا نغفلُ عن خصوصيّة النص التّراثي الّذي نشأ ضِمن منظُومةٍ فكريّةٍ ومنهجيّةٍ-إن صحَّ التّعبيرِ- غير هذه الّتي نشأَ فيها النّص الغربي واستجابت لمناهِجه، فهو منتجُ تلك المعرفة والنّص والمنهج، أمَّا النّقدُ العربي الحديث فهو مستهلكُ هذه النظريّات والمناهج وسايَر حداثةَ الأشكال الأدبيّة والأنواع الّتي ظهرت في العصر الحديث، لكنّ النّص التُراثي نشأَ في بيئةٍ غير هذه البيئةِ، وفِكرٍ غيرَ هذا الفكر.

ولا نَنفِي التّفاعلَ مع الآخر في الماضي وتحاوُر الحضارة العربيّة بعلومها مع الحضارة اليونانيّة، إذ نرى أنّ التّأثير والتأثُّر موجودٌ منذ القديم لكنَّ خُصوصيّة المنجزات النّقديّة القديمة وما قدَّمته غير ما هو موجود في العصر الحديث، بمعنى ما قدّمَه التُّراث عُموما والتُّراث النّقدي من أفكارٍ وتأسيساتٍ قديما أرفَع شأنا ممّا هو موجود في العصر الحديث؛ ربّما يرجع ذلك لقُوّة التّمسُّك بالذّات العربيّة قديما، وهو ما يغيب عن العصر الحديث تبعا لظروف النَّهضة وفَرضِ الآخر الغربي نفسه على العربي وتجسيده لفكرة المركز والهامش.

---

[1]-جابر عصفور، قراءة التّراث النّقدي، ص7.

[2]-محمد عابد الجابري، قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء-المغرب، ط6، 1993، ص11،12.

وحتّى نتجاوز إشكال هذا الاتّصال تارة والانفصال تارة أخرى يرى 'نصر حامد أبو زيد' أنّ الباحث يبدأ "من موقفه الرّاهن وهمومه المعاصرة محاولا اكتشاف الماضي، والباحث في هذه الحالة يُسلّم بما يربطه بالماضي من علاقة جدليّة وينطلق من حقّ الحاضر في فهم الماضي في ضوء همومه"[1]من هنا جاءت دعوتُه النُّقادَ للوقوف في المنتصف في التَّعامل مع النصّ التّراثي بمرتبة تتجاوز التّقديس والتّقليد والرّفض، فالوعي بالتّراث وحسن التّعامل معه بحياد هي مفاتيح لقراءته.

ويصرّحُ 'جابر عصفور' في مقدّمة كتابه هذا وفي ثناياه عن غياب القراءة الحياديّة الموضوعيّة للتّراث، كنتيجة لمشكلات ثلاثة، هي وجود التّراث: هناك بين أنساقه وفي تاريخه، علاقتنا به: حيثُ تتراوح بين الاتّصال والانفصال، وطبيعة القراءة الممارسة عليه، والّتي لن تكون موضوعيّة مَهما حَاول القارئ، فهو ينطلِق من مقولات ونظريّات ومصطلحات ومناهج حاضره (وهي منجزات غربيّة في أصلها) ليقرأ النصّ التّراثي المختلف عن الحاضر في خصوصيّاته، لغته، أفكاره ومبادئه.

يقول 'جابر عصفور': "وإذا كان فعل القراءة هو وصلٌ جدلي بين حضور النصّ التُّراثي(هناك) وحضوره(هنا) فإنّ كل قراءة منجزة هي (المركّب) الثّالث) الّذي يجمع بين الطّرفين، في علاقة كاشفة لكلّ منهما على السّواء"[2] وهنا يتوازى وعي النصّ التّراثي وما يحمله من رؤيا عالمه مع رؤيا عالم القارئ المعاصر حسب منظور 'جابر عصفور'، الّذي يرى أنّ التّراث موجود في الماضي وأيضا موجود في ذهن ووعي القارئ المعاصر، أي هناك وهنا يمارس حضورين، لكنَّ تحقيق القراءة الموضوعيّة للتّراث أمر شبه مستحيل، إذ يقول في كتابه 'مفهوم الشّعر دراسة في التّراث النّقدي': "علينا أن لا نؤرّق أنفسنا بذلك، لأنّنا لن نستطيع أن نفهم القُدماء فهما مُحايدا تماما، إنّما نحن نفهمهم في ضوء ما يؤرّقنا من مفاهيم معاصرة"[3] من هنا نَفى وُجود قراءة تنطلق من درجة الصّفر في فهم التُّراث، داعيا لقراءة التُّراث النَّقدي ضمن الإطار العام للتّراث من علوم عدّة: فلسفة، علم النّفس، وأخلاق وسياسة، ذلك أن التُّراث النَّقدي لا ينفصل عن غيره من الحقول المعرفيّة وعن التّيارات الفكريّة الكبرى، فالتُّراث عنده ليس بمثابة مجموعة من الجزر المنفصلة عن بعض وإنّما هو محور يلتقي فيه الأدب بالنّقد والفلسفة بالتّفسير وبمختلف العلوم والمجالات من هنا يتّضح لنا مقصوده من الأنساق المعرفيّة أو الحيثيات المحيطة بالنصّ المقروء: وهي مختلف العلوم والمجالات التّراثيّة التي عاصرت النّص، وأنساق القارئ: متمثّلة في مجموع القراءات السّابقة و المعاصرة التي ينطلق منها ليفهم النصّ التّراثي.[4]

حيثُ يقرُّ 'جابر عصفور' بوُجود نزعتين مؤثّرتين في هذا المقام: "تصبح القراءة–مع النّزعة الأولى–وصفا محايدا لدائرة المقروء في عُزلةٍ تفصله عن القارئ، وتُصبح القراءة–مع النّزعة الثّانية– توظيفًا عصريّا للتُّراث ليسكن حاضر القارئ" [5] حيثُ تركّز الأولى على النص والثّانية على المتلقّي وإغفالٍ للأنساق المعرفيّة لكلّ منهما، وراح يمثّل للنّزعة الأولى بقراءة 'شكري عيّاد' على أثر كتاب أرسطو في التّراث النّقدي، وتحدَّث عن القراءة الإسقاطيّة وكنموذج لها 'طه حسين ومندور'، وهي إشكال وقع فيه العديد من النُّقاد، يعرّفها عبد الله إبراهيم أنّها "قراءة تسعى لتمرير أهداف والذّود عنها من خلال إنتاج لموضوعات بطريقة تُوافق فيها الأفق العام لمقاصدها"[6] بمعنى أنّها انطلقت من مواقف

---

[1]–نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة والتّأويل، المركز الثّقافي العربي، الدار البيضاء–المغرب، د.ط، 2004 ص228.

[2]– جابر عصفور، قراءة التّراث النّقدي، ص7.

[3]– جابر عصفور: مفهوم الشّعر دراسة في التّراث النّقدي، ص41.

[4]–ينظر. جابر عصفور، قراءة التراث النّقدي، ص، ص6،7.

[5]– المصدر نفسه، ص63.

[6]– عبد الله إبراهيم، الثّقافة العربيّة والمرجعيّات المستعارة، تداخل الأنساق والمفاهيم ورهانات العولمة، ص16.

وأحكام نقديّة فكرانيّة سابقة كأن يسعى النّاقد لإثبات وجود مصطلح معاصر أو نظريّة غربيّة في التّراث دون أن تكون موجودة حقيقة، كما هو الحال في إرجاع 'الغذامي' مقولة (موت المؤلّف) الخاصّة 'برولان بارت' للتّراث العربي وبالضّبط بيت من الشّعر للمتنبّي:

'أنامُ ملءَ جُفوني عن شَوارِدِها ويسهرُ الخلق جرَّاها ويختصمُ'

فحتّى لو اتّفق مدلول هذا البيت مع تغييب المؤلّف فذلك لا يعني إسقاط هذا المصطلح الغربي الّذي له مخاض فكريّ وفلسفيّ خاص به على التراث العربي.

وراحَ يمثّلُ لها بمن نقدوا مشروع 'طه حسين' وقراءته للتّراث، حيث "أصبح طه حسين في كلّ قراءة شيئا ونقيضه، ومن ورائه، تصطرعُ رُؤى لها مرجعيّات متعارضة، ففي مراياها ظَهر مُتناقضا، ذلك أنّ كُلا منها استثمرته للبرهنة على فرضيّة وإثبات قضيّة"[1] فمنهم من جَعله تنويرا حَداثيّا تِبعا لفكره التّنويري، ومنهم من جَعله مُهدِّدا للمبادئ والقِيم كَوْنَ هذا الفريق يرفضُ التَّحديث، كذلك الشَّأن مع النُصوص التُّراثيّة، يوجد من النقاد من عاد إليها ليُثبت أفكارًا حدّدَها من قبل.

إلى جانب القراءة الإسقاطيّة وُجدت القراءة الاستعاديّة الإحيائيّة، وبيَّن 'جابر عصفور' سَيطرةَ التأريخ من جهة وسَعيَ القارئ لفرض نفسه على النص من جهة أخرى، هنا تتعدّد إشكاليّات القراءة تِبعا لعلاقة القارئ بالمقروء وغايته منها، ليصل النُقّاد (المسدّي- حسن حنفي-محمود أمين العالم) إلى قناعة فكريّة تتمثّل في كون التّراث هو "قراءتنا له".

فالحاضرُ العربي شَاهد على تبعيّته للآخر، والماضي يستدعي البحث فيه وكشف مكنوناته، لذلك يحاول هؤلاء إقامة حواريّة ومواءمة بين ما هو موجود في عصرهم وقراءة القديم الّذي يحتويهم ويجذبهم نحوه وإعادة إنتاجه من جديدٍ وِفقًا لقراءة جديدة لا تسعى للتّأصيل لأحدث المناهج الغربيّة في التّراث البلاغي والنّقدي فتكون إسقاطيّة بإقامة وعي بين عصر القراءة وتاريخ المقروء؛ أي حوار الماضي والحاضر، وهنا يصرّح 'جابر عصفور' بوقوع 'حسن حنفي' في فخّ الإسقاط نظرا لممارسة الحاضر سلطته على الماضي وإخضاع النص للقناعات الإيديولوجيّة للقارئ.

لذا يرى أنّ "ما يقوم به القارئ المعاصر-في جانب منه- قراءة من خلال قراءات سابقة"[2] بمعنى وجود متوسّطات قرائيّة(قراءات معاصرة للقارئ وسابقة له) تساعده على فكّ شفرات النص التّراثي، من هنا رضخت القراءات النقديّة للتّراث إلى التّقليد والنّقل في أحيان كثيرة، خاصّة في ثبات المنظور لحدود التّراث بين النّقل والعقل وهو ما ساهم في تقليص التّراث-حسب جابر عصفور- دون بروز مجهودات تخرج عن هذا التّصنيف.

كما يعتبر "أنّ عزل القارئ المعاصر عن الأنساق المعرفيّة للآخر، وتجاهُلِ استعارتها المعرفيّة ضربٌ من الجمود والتّخلّف"[3] ويدعُو للأخذ بمناهج الغرب وبمفاهيم الحداثة باعتبارها منجزات موجودة في حاضر القارئ المعاصر. وراح يبحث في مجهودات النقّاد في قراءة التّراث النّقدي العربي من خلال التّركيز على ما يلي:

1-الخصومة بين القُدماء والمحدثين في العصر العباسي.

2-النّاقد الشّاعر ابن المعتز.

---

[1]- المرجع نفسه، ص16.

[2] - جابر عصفور، قراءة التّراث النّقدي، ص74.

[3]- المصدر نفسه، ص89.

3-نظريّة الفن عند الفارابي.

4-الخيال المتعقّل عند الإحيائيّين.

5 .خاتمة:

انطلاقا ممّا سبق تمّ التوصّل إلى مجموعة من النّتائج والتّوصيات، نوجزها في ما يلي:

-اختلفت غايات العودة للنّصوص التّراثيّة باختلاف النّظرة لمنجزات الماضي والحاضر، فتراوحت القراءات النّقديّة بين التّأصيل والتّحديث والبعث والاسقاط، فمنها من سعت لاستحضار مجهودات القُدامى من خلال الوصف وهناك من بحث فيها وحاورها عبر منجزات غربيّة المنشأ ومناهج غربية الأصل فانتصر للمنهج على حساب النص ومن سعى لكسب شرعيّة أيديولوجيّته عبر الماضي، فكانت أفكاره مفروضة على النّصوص المقروءة.

-تباينت القراءات النّقديّة للتّراث العربي عموما والنّقدي على وجه الخصوص نتيجة النّظرة للتّراث بين الذّاتيّة والتّأثّر بالآخر: فهناك تيار محافظ يرفض التّأثّر بالآخر ويدعو لاستقلاليّة الماضي وينظر له نظرة مقدّسة، بينما يدعو تيّار ثاني للتأثّر بالغرب ويرى أنّ التّراث منجز إنسانيّ وأبرز من يمثّل هذا الرأي التيّار اللّبرالي.

-تبرز إشكاليات القراءات المعاصرة للتّراث النّقدي انطلاقا من جدليّة الاتصال والانفصال بين القارئ المعاصر والنص التّراثي من جهة والقارئ والمنهج من جهة أخرى وبين المنهج والنص من جهة ثالثة. مهما حاول النقّاد قراءة النّصوص التّراثيّة فلا مناص لهم من الوقوع في فخّ الإيديولوجيا، سواء اختاروا الارتباط بالماضي وتقديسه، أو اختاروا الانتصار للمنهج ونوعيّة المقاربة، انطلاقا من واقع غياب القراءة الموضوعيّة للتّراث، والعلاقة الجدليّة بين الذّات القارئة والموضوع المتراوحة بين الاتّصال والانفصال.

-يرى 'جابر عصفور' أنّ التّراث موجود هناك في تاريخه الخاص وفي وعي القارئ المعاصر أيضا، حيثُ يمتلك التّراث رؤيا عالمه والقارئ المعاصر له رؤيا عالمه أيضا، فلا طريق لفهم التّراث النّقدي -حسبه- إلّا في إطار التّراث العام من فلسفة وتاريخ، كما لا يمكن للقارئ المعاصر أن يتجاهل منجزات عصره فينطلق من حاضره ليفهم ماضيه، عبر الحفر والتّأويل والاستفادة من القراءات الموجودة في عصره، فلا هو يُلغي مناهج الحداثة ومفاهيمها ولا هو يُقدّس التّراث فيُشاكس ثباته عبر مفاهيم التّحديث والتّنوير.

-يدعو 'جابر عصفور' لممارسة القراءة الهيرمنيوطيقيّة على التّراث النّقدي العربي في الإطار العام للتّراث، انطلاقا من محاولة القارئ المعاصر فهم النصّ التّراثي بين أنساقه المعرفيّة الّتي أنتجته ليكتشف رؤيا عالمه، من ثمّ يؤوّله انطلاقا من مفاهيمه الحداثيّة ومناهجه الّتي أخذها عن الآخر وينتج رؤيا عالمه هو، ثمّ يوازيها مع الرّؤيا السّابقة لينتج قراءة لا تتجاوز الماضي ولا تلغيه، ولا تستسلم لقدسيّته، تحاول الوقوف في المنتصف فلا تنأى عن المفاهيم والنّظريّات المعاصرة للقارئ لكنها تكون واعية بخلفيّاتها.

حتّى وإن قارب النّاقد الحداثي والمعاصر النّصوص التّراثيّة بمناهج عصره، انطلاقا من حقّه في فهم ماضيه بمناهج عصره فلابدّ له من الوعي بالخلفيّات الإيديولوجيّة والدّينيّة والسّياسيّة والاجتماعيّة لهذه المناهج، فيحذر في التّعامل معها، ولا يتوقّف الأمر عند هذا الحد بل يجب عليه وضع القارئ في الصّورة وتوعيته بخلفيات مناهج الغرب، وبخصوصيّة الذّات العربيّة ومنجزاتها من جهة، واختلاف نص الآخر الذي يصلح تطبيق المنهج الغربي عليه عن النصوص العربيّة خاصّة التّراثية التي نشأت في بيئة وفكر مختلف قد لا يناسبه المنهج، من هنا تولد ضرورة تحقيق براديغم قرائي مرن يراعي فيه المنهج طبيعة النص، ويعي فيه القارئ خلفيات المنهج من جهة، ومن جهة أخرى يحاول ألّا ينطق النصّ بما ليس فيه استسلاما لمقولات المنهج وفكره، وأخيرا يحدّد علاقته بالنص والمنهج معا، فلا يستسلم لهذا ولا يخضع لذاك.

-أخيرا توصية واقتراح التّفكير في قراءة النّصوص التّراثيّة بالآليات النّقديّة التّراثيّة حتّى لا نبخس مجهود القدامى حقّهم إنتاجا ونقدا.

6. قائمة المراجع:

1- إبراهيم عبد الله: الثّقافة العربيّة والمرجعيّات المستعارة، تداخل الأنساق والمفاهيم ورهانات العولمة، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، ص10. 16.

2- تقية هاجر، مبروك دريدي، قراءات التّراث النّقدي العربي في ظلّ مقاربات النّقد الحواري، مجلّة إشكالات في اللّغة والأدب، مجلّد9، العدد3، 2020، المركز الجامعي لتامنغست-الجزائر، ص198.

3- ثامر فاضل، اللّغة الثّانية، المركز الثّقافي العربي، بيروت-لبنان، ط1، 1994، ص41.

4- الجابري محمد عابد، قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء-المغرب، ط6، 1993، ص11، 12.

5- أبو زيد نصر حامد: إشكاليات القراءة والتّأويل، المركز الثّقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، د.ط، 2004 ، ص228.

6- عثماني وليد، استحضار التّراث في المدوّنة النّقديّة العربيّة المعاصرة جابر عصفور نحو قراءة جديدة، مجلّة مقاليد، العدد15، ديسمبر2018، ص144.

7- عصفور جابر، قراءة التّراث النّقدي، مؤسّسة عيبال للدّراسات والنّشر،ط1، 1991، ص7-12-74.

8- عصفور جابر، هوامش على دفتر التّنوير، المركز الثّقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، ط1، 1994، ص22.

9- عصفور جابر: مفهوم الشّعر دراسة في التّراث النّقدي، ، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، الإسكندريّة، ط5، 1995،ص41.